فى أعقاب الموقعة

بدأت موقعة بدر فى صباح اليوم السابعَ عشرَ من رمضان من السنة الثانية للهجرة (١٣ مارس سنة ٦٢٤م)، وانتهت فى عصر ذلك اليوم، فلما انتهت الموقعة أمر رسول الله ﷺ أن يدفَن الشهداء من المؤمنين، وأن يوارَى القتلى من المشركين فى قَليب[١] هناك مهجور. فلما وضعوا فى القليب وقف عليهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: «يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًّا».. (قالت عائشة): فقال له أصحابه: "يا رسول الله، أتكلم قومًا موتى"؟ فقال لهم: «لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق». وبعث رسول الله ﷺ بشيرين إلى المدينة، يبشران بما فتح الله على رسوله وعلى المؤمنين؛ فأرسل عبد الله بن رواحة إلى أهل العالية، وزيد بن حارثة إلى أهل السافلة.

---

(١) القليب: البئر التى لا ماء فيها.

موقف عتاب

وكانت الغنائم التى غنمها المسلمون كثيرة، وكان فيها إبل ومتاع وأنطاع وسلاح وثياب وأدَم كثير حملوه للتجارة؛ فادّعى من قاتل العدو وصده أنهم أحق بها، وادعى من جمعها أنهم أحق بها، وادعى من كان يحرس رسول الله ﷺ أن غيرهم ليس أحق بها منهم. فاختصموا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأمر الناس أن يردوا كل ما فى أيديهم من الغنائم، حتى يرى فيها رأيه أو يقضى الله فيها بقضائه.

روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال: «خرجنا مع النبى، صلى الله عليه وسلم، فشهدنا بدرًا، فالتقى الناس فهزم الله العدو؛ فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبّت طائفة على المغنم يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة؛ حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعضهم، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا فى طلب العدو: لستم بأحق منا، نحن نفينا منها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله، صلى الله عليه وسلم: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به.. فأنزل الله تعالى: ﴿يسألُونَكَ عن

obeikandi.com

الأنفال قُل : الأنفالُ لله والرّسول فاتقوا الله وأصلحوا ذاتَ بيْنِكم وأطيعوا الله ورسُولَه إن كنتم مؤمنين﴾[1]، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين».

ويعلل بعض المفسرين اختلاف المسلمين فى الغنائم، بأن هناك عاملين قويين كان لهما أكبر الأثر فى ذلك الموقف العجيب الذى لم يكن ينتظر قط، لا من المهاجرين الذين شهد الله لهم بأنهم المؤمنون الصادقون، ﴿الذين أُخرِجُوا مِنْ ديارهم وأمْوالِهم يبتغُون فضلاً من الله ورضْواناً وينْصُرون الله ورسولَه﴾[2]، ولا من الأنصار الذين شهد الله لهم بأنهم المؤمنون الصادقون، الذين ﴿يحبُّون مَنْ هاجَر إليهم ولا يجدُون فى صُدُورهم حاجَةً مّما أوتوا ويؤْثرونَ على أنفُسِهم ولوْ كانَ بِهم خَصَاصةٌ﴾[3].. أما أحدهما فعامل معنوى، كل منهم يحرص عليه وهم فى أول موقعة؛ ذلك أن نصيب المقاتل من الغنيمة يقاس به بلاؤه فى الموقعة... وأما الثانى فعامل طبيعى، هو غَلَبة منطق البيئة العربية، من لذة الحصول على المال من طريق الغزو والقتال.

(أقول) : وربما كان هناك عامل ثالث له ما لهذين العاملين من أثر، هو شدة ما كان المسلمون فيه إذ ذاك من الفقر

(١) سورة الأنفال الآية ١.

(٢) سورة الحشر الآية ٨.

(٣) سورة الحشر الآية ٩.

والحاجة، فقد رُوِى أن رسول الله ﷺ نظر إلى أصحابه حين خرجوا إلى بدر، فأثر فى نفسه منظرهم، فدعا الله لهم فقال: «اللهم إنهم حُفاة فاحمِلْهم، وعُراة فاكسُهم، وجياع فأشبِعْهم، وعالة فأغْنهم من فضلك!».

ومهما يكن من شيء فقد كان موقفًا عاتبهم الله فيه، ودرسًا تعلموا منه ما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون الصادقون، من العزوف عن أعراض الدنيا، ومن التطلع إلى ما هو أسمى وأجلّ من متاعها الفانى: ﴿إنما المؤمنون الَّذين إذا ذُكر الله وَجِلَتْ قلوبُهم وإذا تُلِيتْ عليهم آياتُه زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون * الَّذين يُقيمُون الصَّلاةَ ومما رزقْناهم يُنفقُون * أُولئك هُمُ المؤمنون حقًّا لهم درجاتٌ عند ربِّهم ومَغفِرةٌ ورزْقٌ كريم﴾[1].

تقسيم الغنائم

وبات رسول الله ﷺ ليلته تلك بوادى بدر، ثم أصبح مرتحلا بأصحابه إلى المدينة، ومعه الأسارى من المشركين، والنفَل الذى أصابه المسلمون منهم، حتى إذا كان ببعض الطريق نزل، فقسم النفل على أصحابه بالسواء، وجعل للفرس نصيبًا وللفارس نصيبًا، وجعل للورثة حصة من استُشهد من المسلمين.

---

(١) سورة الأنفال الآيات ٢ ـ٤.

وكان فريق من المؤمنين لم يحضروا الموقعة، لأن رسول الله كلفهم أعمالا غير أعمال القتال، وفريق آخر حجزه عذر قاهر كان رسول الله ﷺ يعلمه.. فأسهم لهم رسول الله مع المقاتلين، فكانوا كمن حضر القتال.

ويقول الرواة: إن بعض الصحابة عجبوا لهذا القَسْم الذى سوى بين القوى والضعيف، فسألوا عنه رسول الله ﷺ مستفسرين. قال سعد بن أبى وقاص: " قلت: يا رسول الله، أتعطى فارس القوم الذى يغيظهم مثل ما تعطى الضعيف؟ » فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: « ثَكِلَتْك أمُّك! وهل تُنْصرون إلا بضعفائكم »؟ وكأنما أراد صلى الله عليه وسلم أن يَلفت النظر إلى أن الأمر ليس أمر قوة وحسب؛ إنما هو قبل ذلك تضامن وتعاون واجتماعُ كلمة وائتلاف قلوب.

* * *

ثم ارتحل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى إذا كان بالرَّوْحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه وعلى المسلمين، وجعلوا يعتذرون له عما كان من تأخرهم عن الخروج معه؛ فقال له أُسَيْد بن الحُضَير: " يا رسول الله، الحمد لله الذى أظفرَك وأقر عينك! والله يا رسول الله ما كان تخلفى عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدوًّا، ولكن ظننت أنها عير؛ ولو ظننت

obeikandl.com

أنها عدو ما تخلفت". فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «صدقت».

ومن اللطائف التي رويت في هذا الموقف، أن المسلمين لما أقبلوا على رسول الله يهنئونه، قال لهم سَلَمة بن سلامة: " ما الذى تهنئوننا به؟ فوالله إن لقينا إلا عجائزَ صُلْعًا كالبُدْن المعقَّلة، فنحرناها ".. فتبسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «أى ابنَ أخى، أولئك المَلأ»!! أى هم الأشراف والسادة، الذين لا يستهان ببلائهم فى القتال، ولا بمكانهم فى القوم.

النبي يأمر بقتل اثنين من الأسرى

ثم أخذ رسول الله ﷺ فى السير إلى المدينة. فلما بلغ «الأُثَيْل» استعرض الأسرى هناك، فأمر باثنين منهم أن يقتلا: هما النَّضْر بن الحارث، وعُقْبة بن أبى مُعَيْط. وكان كلاهما شيطانًا من شياطين قريش، ومن أشد المشركين إيذاء للنبى وصحبه، وأفظعهم تقوُّلا على كتاب الله وعلى رسول الله.

أما أولهما، وهو النضر بن الحارث، فقد نظر إليه رسول الله ﷺ وهو يستعرض الأسرى عند الأثيل ـ نظرة هَلَع لها فؤاده؛ فقال لرجل إلى جنبه: "محمد ـ والله ـ قاتلى؛ فقد نظر إلى

بعينين فيهما الموت"!.. فقال له صاحبه: "ما هذا - والله - منك إلا رعب"؛ وجعل النضر يتلمس من يشفع له عند رسول الله كي لا يقتله؛ فذهب إلى مصعب بن عمير، وكان أقربَ المسلمين إليه رحماً، فقال له: "كلم صاحبك أن يجعلني كرجل من قريش، فهو - والله - قاتلي إن لم تفعل". فقال له مصعب: "إنك كنت تقول في كتاب الله وفي نبيه كذا وكذا، وكنت تعذب أصحابه". فقال النضر: "لو أسرتْك قريش ما قتلتْك أبدًا وأنا حي". قال مصعب: "والله إني لا أراك صادقًا. ثم إني لست مثلك، فقد قطع الإسلام العهود"..

وكان النضر أسير المقداد بن عمرو؛ فلما سمع الحديث يدور حول قتله صاح قائلا: "النضر أسيري"! فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «اضرب عنقه.. واللهم أغْنِ المقداد من فضلك»! فقتل ضربًا بالسيف.

وأما الآخر، وهو عقبة بن أبي معيط، فقد أمر النبي بقتله وهم «بعَرْق الظُّبْية»، فصاح عقبة جزعًا: "فمن للصبية يا محمد"؟ قال: «النار»! وروى عن الشعبي أنه لما أمر النبي، صلى الله عليه وسلم، بقتل عقبة قال: "أتقتلني يا محمد من بين قريش"؟ قال: «نعم! أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقي وغمزها، فما رفعها

حتى ظننت أن عينيَّ ستَنْدران[1].. وجاء مرة أخرى بسَلاَ شاة فألقاه على رأسي وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسي».. ثم أمر بقتله فقتل.

* * *

ثم مضى رسول الله ﷺ فى طريقه إلى المدينة، فدخلها قبل الأسارى بيوم، وكان دخوله من ثنية الوداع، فى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من رمضان، فتلقاه الولائد بالدفوف يقلن:

طلع البدر علينا　　من ثَنيات الوداع
وجب الشكرُ علينا　　ما دعا لله داع

وتلقاه الناس يهنئونه بفتح الله؛ "فقدم صلى الله عليه وسلم المدينة مؤيَّدًا مظفرًا منصورًا، قد أعلى الله كلمته، ومكن له وأعزه ونصره"[2].

الرسول يشاور أصحابه فى الأسرى

فلما أقبل الأسارى فرقهم بين أصحابه، وقال: «استوصوا بالأسارى خيرًا». فكان المسلمون يكرمونهم، حتى إنهم لَيُؤْثِرونهم.

(١) ستندران: ستخرجان.

(٢) السيرة النبوية، لدحلان.

على أنفسهم بطيبات الطعام.. يقول أبو عزيز بن عمير فيما رواه ابن إسحاق: "كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر، فكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله إياهم بنا؛ ما تقع فى يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها. (قال): فأستحيى فأردها على أحدهم، فيردها علىّ ما يمسها".

ثم استشار رسول الله ﷺ كبار أصحابه فى الأسارى؛ فأشار بعضهم بأن يقتلوا أو يحرقوا، لأنهم رءوس الكفر وأئمة الضلالة، ولما أسلفوا من الإساءة إلى المسلمين؛ وأشار بعضهم بأن تقبل منهم الفدية، ليكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين، ولعل الله أن يُقْبِل بقلوبهم فيتوبوا. فآثر رسول الله الفداء، لما كان عليه أصحابه من رقة الحال وشدة الفقر حينذاك.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: «لما كان يوم بدر قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما تقولون فى هؤلاء الأسرى»؟ فقال أبو بكر: "يا رسول الله، قومك وأهلك! استبقهم واستَأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم". وقال عمر: "يا رسول الله، أخرجوك وكذبوك!! قرِّبْهم فاضرب أعناقهم"! وقال عبد الله بن رواحة: "يا رسول الله، أُنظُرْ واديًا كثير الحطب فأدخلهم فيه، ثم أضرمه عليهم نارًا"..

(قال) : فدخل رسول الله ولم يردّ عليهم شيئًا. فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر، وقال ناس : يأخذ بقول عمر، وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. فخرج عليهم فقال : «إن الله لَيُلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشُد قلوب رجال فيه حتى تكون أشدّ من الحجارة.. وأنتم عالة، فلا يبقَيَنَّ أحد إلا بفداء أو ضربة عنق».

افتداء الأسرى

ولقد عاتب الله رسوله ﷺ على أن قبل الفداء وآثره على الإثخان فى قتل العدو، فقال سبحانه : ﴿ما كان لنبيٍّ أنْ يكونَ له أسْرَى حتَّى يُثْخِنَ فى الأرض تُريدون عَرَضَ الدُّنيا والله يريدُ الآخرة والله عزيزٌ حكيمٌ * لَوْلا كِتابٌ مِنَ الله سَبَق لمسَّكم فيما أخذْتُم عذابٌ عظيم﴾(1) !.

ويقول الرواة : إن رسول الله ﷺ بكى، وبكى معه أبو بكر، حين نزلت هذه الآية، وتمنى لو أنه أخذ برأى عمر فى قتل الأسارى.

على أن الله قد تجاوز لرسوله عن هذه الهفوة، وأحل له

---

(1) سورة الأنفال آيتا ٦٧، ٦٨.

وللمسلمين ما أخذوا من الغنيمة، فقال سبحانه: ﴿فكلوا مما غَنِمتم حَلالاً طيِّباً واتقُوا اللهَ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾[1].

وقد مَنَّ النبي ﷺ على فقراء الأسرى فأطلقهم بغير فداء، وجعل فداء بعضهم ممن يعرفون الكتابة أن يعلِّمَ عشرة من صبيان المسلمين الكتابة، أما أغنياؤهم فقد أبقاهم حتى يفتديَهم أهلوهم. وكان فداء الواحد يتراوح بين ألف درهم وأربعة آلاف درهم، بحسب حاله من الضيق والسعة.

وكان ممن منَّ عليه رسول الله ﷺ أبو عزة - عمر بن عبد الله الجُمَحيّ؛ كان محتاجًا ذا بنات، فكلم رسول الله فقال: "يا رسول الله، لقد عرفتَ ما لى من مال، وإنى لذو حاجة وذو عيال؛ فامنُن علىّ". فمنَّ عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأخذ عليه العهد ألا يظاهر عليه أحدًا.

فداء أبى العاص

وكان فى الأسارى أبو العاص بن الربيع، خَتَن[2] رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وزوج ابنته زينب. قال ابن

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٩.

(٢) ختنه: صهره.

إسحاق : « وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين مالا وأمانة وتجارة.. فلما بعث أهل مكة فى فداء أسْراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ فى فداء أبى العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها، كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين بنَى عليها. فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رِقَّة شديدة، وقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها، فافعلوا » ! فقالوا : نعم يا رسول الله. فأطلقوه وردوا عليه الذى لها. وأخذ النبى على أبى العاص أن يخلّى سبيل زينب، فوعده ذلك ».

فداء العباس

وكان فى الأسارى كذلك العباس عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فطمع أن يمن عليه رسول الله فيطلقه بلا فداء؛ فأبى رسول الله إلا أن يدفع فديته، وفدية نفر من أهله ومن حلفائه كانوا معه. روى الزهرى عن جماعة سماهم قال : « بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ فى فداء أسراهم، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضُوا؛ وقال العباس : "يا رسول الله، قد كنت مسلمًا". فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : « الله أعلم بإسلامك، فإن تكن كما تقول فإن الله يجزيك، وأما ظاهرُك

فقد كان علينا. فافتد نفسك وابنَيْ أخيك: نَوْفلَ بن الحارث ابن عبد المطلب، وعُقَيل بن أبى طالب بن عبد المطلب، وحليفَك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر». قال: "ماذاك عندى يا رسول الله". قال: «فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل؟ قلت لها: إن أصبت فى سفرى هذا فهذا المال الذى دفنته لبَنِيّ: الفضل وعبد الله وقثم». قال: "والله يارسول الله إنى لأعلم أنك رسول الله! إن هذا لشىء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل؛ فاحسُب لى يا رسول الله ما أصبتم منى: عشرين أوقية من مال كان معى". فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «لا... ذاك شىء أعطانا الله تعالى منك». ففدى نفسه وابنى أخويه وحليفه».

صورة من المعركة كانت من عوامل النصر والهزيمة

أما بعد، فقد انتصر المسلمون فى بدر على قلة عددهم وضعف أهبتهم، وكثرة عدوهم وقوة استعداده؛ فما أسباب هذا النصر يا ترى مع ذلك التفاوت البيِّن بين الفئتين؟ وما السر فى أن هذه القلة العزلاء تغلب تلك الكثرة المستعدة، غَلَبًا يكون موضع العجب من الغالبين والمغلوبين جميعًا، وينقلب به ميزان التقدير إلى عكس ما تعود الناس أن يقدروا، وتنعكس فيه

النتيجة إلى غير ما ألف الناس أن تكون.

ليس من شك فى أن الله أمد المؤمنين بمدد من قوته، وأيدهم بروح منه، وأنزل جنودًا لم يَرَوْها، وكتب لهم النصر جزاء ما صبروا وصدقوا، وما تحملوا من آلام وتضحيات فى سبيل عقيدتهم؛ ولكن هناك أسبابًا أخرى، يستطيع المتأمل أن يدركها حين يستعرض صورة الموقعة من مبدئها إلى منتهاها، وأن يستشف ما وراء المواقف والحوادث من معان وإشارات. ولكى نعرض الصورة كاملة لهذه الموقعة، يحسن بنا أن نضم إلى ما مضى بعض صور أخرى مما تناثر على هوامشها، من بعض الحوادث التى قد تكون صغيرة فى ظواهرها، ولكنها كبيرة فى مغازيها..

تشاؤم

١ - روى ابن إسحاق وغيره أن عاتكة بنت عبد المطلب، رأت فى منامها قبل أن تخرج قريش بثلاث ليال، أن راكبًا أقبل على بعير حتى وقف على قريش، ثم صرخ بأعلى صوته: "يا آل غُدَر، انفروا إلى مصارعكم فى ثلاث"! وظل يكررها هنا وهناك والناس مجتمعون عليه، ثم أخذ صخرة فرمى بها من أعلى الجبل، فأقبلت تهوى، حتى إذا كانت بأسفله تناثرت أجزاؤها فى

كل ناحية، فما بقى بيت ولا دار فى مكة إلا دخلته منها فِلْقة.. وبعد ثلاث من هذه الرؤيا، جاء رسول أبى سفيان يصيح بالقوم، ويستفزهم لينقذوا عيرهم وأموالهم.

تشاؤم

٢ ـ ورووْا كذلك أن جُهَيْم بن الصَّلْت رأى ـ وهم فى طريقهم إلى بدر ـ كأن راكبًا أقبل على فرس ومعه بعير حتى وقف على رأسه، فقال: قُتل فلان وفلان، وأسر فلان وفلان ـ لرجال سماهم من أشراف قريش ـ ثم ضرب بخنجره فى لَبَّة بعيره وأرسله فى العسكر، فما بقى خباء من أخبيتهم إلا أصابه من دمه.

تشاؤم

٣ ـ وروى الواقدى أن ضَمضَم بن عمرو جاء إلى الحارث ابن عامر فقال له: إنى رأيت رؤيا كرهتها.. رأيت وأنا كاليقظان على راحلتى، كأن واديكم يسيل دمًا. فقال الحارث: ما خرج أحد وجهًا من الخروج أكره له من وجهى هذا! قال ضَمضَم: إنى لأرى أن تجلس. فقال الحارث: لو سمعت هذا

منك قبل أن أخرج ما سرت خطوة، فاطو هذا الخبر أن تعلمه قريش، فإنها تتهم كل من عوّقها عن السير.

تشاؤم

٤ - وروى الواقدى أيضًا: أن نفرًا من زعماء قريش استقسموا بالأزلام قبل خروجهم إلى بدر، فجعل القِدْح الناهى عن الخروج يخرج لهم، حتى إن زَمْعَة بن الأسود غضب على القداح فكسرها وهو يقول: «ما رأيت كاليوم قداحًا أكذب من هذه!!» (قال): وكرهت قريش وأهل الرأى منهم المسير، ومشى بعضهم إلى بعض. وكان من أبطئهم عن ذلك الحارث بن عامر، وأمية بن خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وحكيم بن حزام، وأبو البخترى، وعلى بن أمية بن خلف، والعاصى بن منبه.. حتى نَكَتَهم[1] أبو جهل بالجبن، وأعانه عقبة بن أبى معيط؛ فأجمعوا المسير.

تفاؤل

٥ - وروى غير واحد أن رسول الله ﷺ لما عد أصحابه يوم بدر، وجدهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا؛ ففرح بذلك وقال:

---

(١) نكتهم: وصفهم.

«عِدَّةُ أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر»! وروى كذلك أن المسلمين تفاءلوا بالمكان الذى عدهم فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

إيمان بالحق

٦ - وروى الواقدى أن خُبَيْب بن يساف كان رجلا شجاعًا، وكان يأبى الإسلام؛ فلما خرج رسول الله إلى بدر، خرج هو وقيس بن محرث، فعرضا على رسول الله ﷺ أن يخرجا معه، فقال: «لا يخرج معنا رجل ليس على ديننا». فقال خبيب: «قد علم قومى أنى عظيم الغَنَاء فى الحرب، فأقاتل معك للغنيمة». قال: «لا، ولكن أسْلِم ثم قاتل».

غرور

٧ - وَرَوَى كذلك أن أَيماء بن رَخْصَة بعث إلى قريش ابنًا له بعشر جزائر أهداها لهم، وقال: إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فَعَلنا.. فأرسلوا إليه: «أنْ وصَلَتْك رَحِم؛ فلئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا ضعفٌ عنهم، ولئن كنا نقاتل الله - كما يزعم محمد - فما لأحد بالله طاقة».

obeikandl.com

عدالة

٨ - وروى ابن إسحاق أن رسـول الله ﷺ عـدّل صفوفه يوم بدر، وفى يده قِدْح يعدل به القوم، فمر بسوَاد بن غُزَيَّة وهو مسْتَنْتلٌ(١) من الصف، فطعن فى بطنه بـالقِدْح، وقـال: «استَوِ ياسواد». فقال: "يا رسول الله أوْجَعتنى وقد بعثك الله بـالحق والعدل! فأقِدْنى(٢)"، فكشف رسول الله ﷺ عن بـطنه فقـال: «استَقِد». (قال): فاعتنقه سواد فقبَّل بطنه. فقال رسـول الله، صلى الله عليه وسلم: «ما حملك على هذا يـا سـواد»؟ قـال: «يا رسول الله، حَضر ما ترى، فأردت أن يـكون آخـر العهـد بك أن يمس جِلدى جلدكَ»! فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

إكراه

٩ - وروى ابن إسحاق: أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «إنى عرفت رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كُرهًا لا حاجة لهم بقتالنا؛ فمن لقى منكم أحدًا من بنى هـاشم

---

(١) مستنتل: بارز.

(٢) فأقدنى: أى مكنى من نفسك لأفعل بك مثل ما فعلت بى، من القـود وهـو القصاص.

فلا يقتله، ومن لقى أبا البخترى بن هشام فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله».

قال ابن إسحاق: وإنما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبى البخترى، لأنه كان أكَفَّ القوم عن رسول الله وهو بمكة، وكان لا يؤذيه ولا يبلغه عنه شىء يكرهه، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبت قريش على بنى هاشم وبنى المطلب.. (قال): فلقيه المجذَّر بن زياد فقال له: «إن رسول الله قد نهانا عن قتلك» - ومع أبى البخترى زميل له قد خرج معه من مكة - قال: «وزميلى»؟ قال له المجذر: «لا والله. ما نحن بتاركى زميلك! ما أمرنا رسول إلا بك وحدك». فقال: «لا والله؛ إذن لأموتَنَّ أنا وهو جميعًا! لا تتحدث عنى نساء مكة أنى تركت زميلى حرصًا على الحياة» فاقتتلا، فقتله المجذر ابن زياد.

قال ابن إسحاق: ثم إن المجذر أتى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: «والذى بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يَستأسِرَ فآتيك به، فأبى إلا أن يقاتلنى؛ فقاتلته فقتلته».

مواساة كريمة

١٠ - وروى ابن إسحاق: أن رسول الله ﷺ لما أمر بقتلى

قريش أن يُلْقَوْا فى القليب، وأُخذ عتبة بن ربيعة فسُحب إلى القليب، نظر رسول الله فى وجه أبى حُذَيفة بن عتبة، فإذا هو كئيب قد تغير لونه. فقال: «يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك فى شأن أبيك شيء»؟ فقال: «لا والله يا رسول الله، ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه؛ ولكنى كنت أعرف من أبى رأيًا وحلمًا وفضلا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام. فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له، أحزننى ذلك».. فدعا له رسول الله بخير، وقال له خيرًا.

فناء فى الحق

١١ - وروى كذلك: أن أبا عزيز - أخا مصعب بن عمير - قال: مر أخى مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرنى، فقال له: «شُدَّ يدك به فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك»! فقال أبو عزيز: «يا أخى، أهذه وصاتك بى»؟ فقال له مصعب: «إنه أخى دونك».. (قال): فسألت أمه عن أغلى ما فُدِى به قرشى، فقيل لها: أربعة آلاف درهم. فبعثت بأربعة آلاف ففدته بها.

١٢ - وروى عن عبد الرحمن بن عوف قال: كان أمية

ابن خلف لى صديقًا بمكة؛ فلما كان يوم بدر، مررت به وهو واقف مع ابنه علىّ وهو آخذ بيده. ومعى أدرع قد استلَبْتها فأنا أحملها. فلما رآنى قال: «هل لك فىَّ فأنا خير لك من هذه الأدراع التى معك»؟ قلت: «نعم هالله»! فطرحت الأدرع من يدى وأخذت بيده وبيد ابنه، فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى، وكان هو الذى يعذب بلالا على الإسلام بمكة. فلما رآه قال: «رأس الكفر أمية بن خلف؛ لا نجوْتُ إن نجا»!! قلت: «أىْ بلال، أسيرى»! قال: «لا نجوت إن نجا»!! ثم صرخ بأعلى صوته: «يا أنصار الله، رأس الكفر أمية ابن خلف، لا نجوت إن نجا»!! فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل المُسْكة[1]، فأنا أذبّ[2] عنه. (قال): فأخلف رجل السيف فضرب ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت بمثلها قط! قلت: انجُ بنفسك ولا نَجاء، فوالله ما أغنى عنك شيئًا». قال: فهَبَروهما بأسيافهم حتى فرغوا منهما. فكان عبد الرحمن يقول: «يرحم الله بلالا؛ فجعنى بأدراعى وأسيرىّ»!

١٣ - وروى غير واحد أن أبا جهل قال يوم بدر: «اللهم أقطعُنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحِنْه الغداة»! وأقبل

---

(١) المسكةُ: السوار أو الخلخال.

(٢) أذبّ: أدافع.

على الناس فقال: «يا معشر الناس، لا يَهولنكم قتلُ شيبة وعتبة والوليد، فإنهم قد عجلوا؛ فواللات والعزى لا نرجع حتى نَقرِن[1] محمدًا وأصحابه فى الحبال! ثم انغمر فى المعمعة وهو يقول متمثلا:

ما تَنْقِمُ الحرب الشَّموسُ منّى
بازلُ عامين حديثٌ سنى
لمثل هذا ولدتنى أمى»!

قال معاذ بن عمرو بن الجموح: «سمعت القوم وأبو جهل فى مثل الحَرَجَة[2]، وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخلَص إليه. فلما سمعتها جعلته من شأنى، فصمدت نحوه؛ فلما أمكننى حملت عليه، فضربته ضربة أطَنَّت[3] قدمه بنصف ساقه. (قال): وضربنى ابنه عكرمة على عاتق فطرح يدى، فتعلقت بجلدةٍ من جنبى؛ وأجْهَضنى[4] القتال عنه، فلقد قاتلت عامَّةَ يومى وإنى لأسحبها خلفى. فلما آذتنى وضعت عليها قدمى، ثم تمطَّيت بها عليها حتى طرحتها».

(١) نقرن: نربطهم وهم أسارى.
(٢) الحرجة: الشجر الملتف.
(٣) أطنت: قطعتها.
(٤) أجهضنى: أعيانى.

قال ابن إسحاق: ثم مر بأبى جهل وهو عَقِير معوِّذُ ابن عفراء، فضربه حتى أثْبَتَه[1]، ثم تركه وبه رمق؛ فمر بأبى جهل عبد الله بن مسعود، حينما أمر رسول الله ﷺ أن يُلتَمَس فى القتلى..

قال عبد الله بن مسعود - فيما رواه الإمام أحمد -: انتهيت إلى أبى جهل يوم بدر، وقد ضُرِبت رجله وهو يذُبُّ الناس عنه بسيف له، فقلت: «الحمد لله الذى أخزاك يا عدو الله»! قال: «هل هو إلا رجل قتله قومه»؟ فجعلت أتناوله بسيف لى غير طائل[2] فأصبت يده، فندرَ[3] سيفُه فأخذته، فضربته حتى قتلته. ثم خرجت حتى أتيت النبى كأنما أُقَلُّ[4] من الأرض، فأخبرته. فقال: «آلله الذى لا إلٰه إلا هو»؟! فرددها ثلاثًا. قلت: «الله الذى لا إلٰه إلا هو» (قال): فخرج يمشى معى حتى قام عليه فقال: «الحمد لله الذى أخزاك ياعدو الله..! هذا كان فرعون هذه الأمة».

إن من يستعرض هذه الصور والمناظر، ثم يتأمل فيما وراءها

---

(١) أثبته: أعجزه عن الحركة.

(٢) غير طائل: غير قاطع.

(٣) ندر: سقط.

(٤) أقلّ: يعنى أنه كان من الفرح والنشاط كأنما يحمل عن الأرض حملا.

من حقائق ومعان، يستطيع أن يدرك بعض أسباب هذا النصر الذى كتبه الله للمؤمنين فى موقعة بدر، ويستطيع أن يتبين منها حال كل من الفريقين، وهدف كل من الفريقين فى هذه الموقعة؛ كما يستطيع أن يدرك الروح الذى كان يسيطر على كل فريق فيدفعه إلى القتال.

قاتل المسلمون وهم على رأى واحد

لقد خرج المسلمون حين خرجوا من المدينة وهم على رأى جميع وتحت قيادة واحدة، قاصدين إلى هدف واحد هو اغتنام العير؛ فلما تبين لهم أن العير أفلتت وأن قريشًا قد خرجت إليهم، تغير الموقف عما كان، وبدا فى صفوفهم شىء من الضعف؛ فنفخ فيهم قائدهم رسول الله ﷺ من روحه القوى، فردهم إلى القوة وجمعهم على الصواب، فلم يَشِذَّ عن إجماعهم بعد ذلك رجل واحد.. فلما نزلوا بعيدًا عن الماء، واشتدت الحاجة بهم إلى الرِّى والتطهر، وأخذ الشيطان يدخل إلى بعض النفوس، تداركتهم رحمة الله فغشَّاهم النعاس وأنزل عليهم الماء، فأذهب عنهم رجس الشيطان، وأعاد إلى نفوسهم الأمن وإلى قلوبهم السكينة، فساروا إلى المعركة وهم يفيضون بالحمية للحق الذى يدافعون عنه. وكان الهدف الذى يرمون إليه حينذاك، أن

يظهر دين الحق على كل دين، وأن تعلوَ كلمة الله على كل كلمة؛ وفى سبيل هذا الهدف العظيم هانت التضحية، ورخصت النفوس، ونسى المؤمنون كل ما هنالك من زينة الحياة الدنيا، وأصبحوا ولاهمَّ لأحدهم إلا أن يظفر بالشهادة، ويحظى بالموت فى سبيل الله.

وقاتل المشركون وقلوبهم شتى

أما المشركون فقد خرجوا مفككين لا تربطهم قيادة واحدة، ولا يجمعهم رأى واحد؛ كان البعض يريد الانتقام والثأر من محمد وصحبه، وكان البعض لا يريد إلا انقاذ العير؛ فلما أن علموا بنجاة العير ظهر التفكك فى شكل عملى، فرجع فريق منهم ولم يواصلوا السير مع القوم، وتورط فريق آخر فساروا مع القوم اضطرارًا، مداراة لسفهائهم. فلما تراءت الفئتان ورأى المشركون فى وجوه المسلمين ما رأوا من مظاهر العزم القوى، والاستعداد للتضحية، والاستهانة بالموت، ظهر التفكك مرة أخرى فى صفوفهم، فأخذ بعضهم يسعى لإرجاع القوم، وبعضهم يسعى ليدفعهم إلى القتال؛ واختلف الفريقان حتى تشاتم زعماؤهم، فلم يدخلوا المعركة إلا والنفوس مشحونة بالضغينة، والقلوب موزعة هنا وهناك. على أنه كان فى المعركة فريق آخر

لم يكن يضمر للنبي ولا للمؤمنين حقدًا ولا عداوة، وهم بنو هاشم ومن شايعهم، فهؤلاء كان ظاهرهم مع المشركين وقلوبهم مع المؤمنين، ومن أجل هذا أوصى رسول الله ﷺ أصحابه بألا يقتلوا من يجدونه منهم.. وإذن فقد دخل المشركون المعركة وقلوبهم شتى، وأهواؤهم متباينة، وقيادتهم فوضى بغير زعيم يرجع إليه الأمر وتجب له الطاعة؛ فى حين دخلها المؤمنون وكلمتهم واحدة وقيادتهم واحدة، وهدفهم واحد.

المسلمون تحت قيادة حكيمة رحيمة والمشركون تحت قيادة هوجاء مستكبرة

فإذا فرضنا أن أبا جهل كان هو القائد، لأنه هو الذى غلب رأيه على كل رأى، وهو الذى وجه القوم حتى قادهم إلى حَيْنهم[1] هذا؛ ثم أردنا أن نوازن بين القيادتين، وجدنا المسلمين تحت قيادة حكيمة رحيمة محببة إلى القلوب، ووجدنا المشركين تحت قيادة هوجاء مستكبرة عنيفة.. فهذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يسوّى نفسه بأصحابه فى كل شىء، ويشاورهم فى كثير من الأمر، ويأخذ بما يرى غيره من الصواب، ويردهم إلى الصواب فى رفق حين يخطئونه، ويتواضع لهم حتى يُقِيد من

(١) حينهم : هلاكهم.

نفسه من شاء أن يستقيد. وهناك أبو جهل يفرض رأيه بالعنف تارة وباللؤم تارة أخرى، ويسلط لسانه على كل من خالفه حتى يضطره إلى مجاراته، ثم هو لا يأخذ بنصح ناصح ولا ينطوى لرأى مشير، ولا يوقر كبيرًا، ولا يرحم صغيرًا، ولا يفكر فى عواقب ما يرى وما يفعل.

قاتل المسلمون على خطة محكمة
وقاتل المشركون على غير خطة

فإذا نظرنا إلى التعبئة فى كلا الفريقين، وجدنا المسلمين قد عُبئوا فى صفوف متلاحمة كالبنيان المرصوص، وتخيروا الوضع الملائم فاستدبروا الشمس ولم يستقبلوها، ولم يزحفوا إلى قريش حين زحفت إليهم، بل ظلوا فى أماكنهم جُثِيًّا على الركب، ينضحون عدوهم بالنبل، كما أمرهم قائدهم؛ حتى إذا غَشِيَهم المشركون أعملوا فيهم السيوف وهم جمع متحد لا أشتات متناثرة.

وفى مثل هذا الوضع الحربى فقد تغنى القلة ما لا تغنى الكثرة.. وعلى العكس من ذلك كان المشركون.. كثرةٌ غير مجتمعة، وخطة غير موضوعة، وزعامة غير متفقة، وقيادة غير موحدة، وقلوبٌ غير مؤتلفة؛ والوضع بعد ذلك غير ملائم،

فالشمس تضرب فى وجوههم، والماء فى حيازة أعدائهم، ثم تبدأ المعركة مع هذا بدءًا سيئًا، فيموت أربعة من زعمائهم قبل أن يأخذوا فى الزحف.

كان المسلمون قلة معتمدة على ربها، وكان المشركون كثرة مغرورة بقوتها

فإذا نظرنا بعد ذلك إلى الروح الذى كان يسيطر على كلا الفريقين عند القتال، وجدنا المسلمين يقاتلون وهم مؤمنون بأنهم إنما يدافعون عن الحق الذى يحبه الله ورسوله، موقنون بأنه لا يغنى فى الدفاع عن الحق إلا من صدق بالحق وآمن، مصدقون بما وعد الله من نصر الحق وإعلاء كلمته. من أجل ذلك أبَوْا أن يستعينوا بأحد من المشركين مهما كان ولاؤه وغناؤه، ولم تمنعهم قلتهم أن يُقْدموا على القتال، واعتمدوا على الله وحده فى إمدادهم بعونه وتأييدهم بتوفيقه. أما المشركون فقد خرجوا من ديارهم بطرًا ورئاء الناس، يملؤهم الزهو والغرور بكثرة عددهم وقوة عتادهم، لا يريدون إلا أن يسمع الناس بهم ويتحدثوا عنهم، موقنين بأن النصر للكثرة، وأن الغلب للقوة، ومن أجل ذلك قالوا لأيماء بن رخصة حين عرض عليهم معونته : «لئن كنا إنما نقاتل الناس ما بنا ضعف عنهم، ولئن

كنا نقاتل الله - كما يزعم محمد - فما لأحد بالله طاقة». وقد صور الله حالهم تلك بقوله سبحانه: ﴿وإذ زَيَّن لهم الشَّيطانُ أعمالهم وقال لا غالبَ لكُم اليومَ من النَّاسِ وإنِّى جَارٌ لكم فلما تَراءت الفِئتان نَكَصَ عَلَى عَقبَيه وقال إنى بَرىءٌ منْكُم إنِّى أرَى ما لا تَرَوْنَ إنى أخافُ الله والله شديدُ العقاب﴾[1]. فهذه فئة قليلة مؤمنة تدافع عن الحق وتعتمد فى تأييدها على الله وحده، وتلك فئة كافرة مغرورة بكثرتها، يدفعها البغى والعدوان ومراءاة الناس إلى القتال.

خرج المسلمون متفائلين
وخرج المشركون متشائمين

وربما كان من أسباب هذه الخلخلة فى صفوف المشركين أنهم كانوا قومًا يتطيرون، وقد اجتمعت عليهم فى هذه الخرْجة أسباب كثيرة تدعو إلى التطير؛ فقد تطيروا من القداح يضربونها فتنهاهم عن الخروج؛ وتطيروا من الرؤى الكثيرة التى رآها غير واحد منهم، وكلها تنذر بالشر وتوحى بالتشاؤم، حتى لقد أشفق أبو لهب من رؤيا عاتكة، فكف عن الخروج وقال: «إنما رؤيا عاتكة أخْذٌ باليد»؛ وتطيروا برأى أبى جهل وكرهوا الخروج عن

(١) سورة الأنفال الآية ٤٨.

مشورته. فقد خرج القوم إذن وهم متشائمون، وأقدموا على القتال وهم كارهون.

وهناك أسباب أخرى يستطيع من تأمل أن يدركها، على أنه مهما تعددت هذه الأسباب ومهما تنوعت، فإن مردها جميعًا إلى أصل واحد، هو تأييد الله وتثبيته للمسلمين، وخذلانه وتثبيطه للمشركين: ﴿وَيريدُ الله أن يُحِقَّ الحقَّ بكلماتِهِ ويَقطَعَ دابرَ الكافرين * لِيُحقَّ الحقَّ ويُبطلَ الباطل وَلو كَرِه المجرمُون * إذ تستَغيثُون ربَّكم فاستَجابَ لكم أنى مُمِدّكم بألفٍ من الملائكة مُرْدِفين * وما جَعَله الله إلاَّ بُشْرى ولِتَطمَئنَّ به قلُوبُكم وما النَّصرُ إلاَّ من عند الله إنَّ اللهَ عزيزٌ حكيم﴾[1].

(١) سورة الأنفال الآيات ٧ - ١٠.